مكانة القرآن الكريم في التراث البلاغي العربي

The Holy Quran Position in the Arabic Rhetoric Heritage

أ.د/ واسيني بن عبد الله[1]*،

[1] جامعة أبو بكر بلقايد ، تلمسان، (الجزائر)، الإيميل المهني: oammine@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2024/01/10	تاريخ القبول:2024/02/15	تاريخ النشر:2024/06/13

ملخص:

يدور موضوع البحث حول مكانة القرآن الكريم بعلومه المختلفة في نشأة البلاغة العربية وإرساء أصولها؛ ذلك أن له فضلا كبيرا في التراث البلاغي العربي، وقد كان سببا في تأليف عدد كبير من أمهات كتب البلاغة؛ وعلى رأسها كتاب (المجاز) لأبي عبيدة معمر بن المثنى. و كتاب (إعجاز القران في نظمه وتاليفه) للواسطي، وخاصة ما ألفه كل من الرماني صاحب رسالة (النكت في إعجاز القرآن) ، والخطابي في كتابه (بيان إعجاز القرآن)، والباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) وغيرهم

الكلمات المفتاحية :القرآن الكريم؛ البلاغة العربية ؛ التراث .الكتب

Abstract:

The subject of the research is about the Position of the Holy Quran and its different sciences in the emergence of Arabic Rhetoric and establishing its origins ; Because he has a great addition to the Arab rhetorical heritage, and he has caused a number of Important books of Rhetoric.

Keywords: Holy Quran; Arabic Rhetoric ; Heritage; Books.

1.مقدمة:

لقد شغل القرآن الكريم الناس في كثير من النواحي؛ وتعددت طرق الاهتمام به؛ إما بالمدارسة والتلاوة، أو بتوضيح معانيه وتفسيره، أو بشرح ألفاظه وتراكيبه، أو بدراسة ما فيه من فنون وعلوم، أو بإظهار مواطن البلاغة والفصاحة فيه. وقد وقف العرب الأوائل أمامه مبهورين متعجبين، وقد رأى كثير من العلماء أن دراسة البلاغة من الأساسيات ولها مرتبة أولى بعد تعلم القرآن الكريم؛ لأن بمعرفتها تعرفنا على إعجاز القرآن وما خصه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وجمال الإيجاز...

* أ.د/ واسيني بن عبد الله

وقد كان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية وكانت آياته وأسلوبه الشاهد على بلاغته وفصاحته، كما أن علم البلاغة من أجل علوم العربية، التي لقيت عناية كبيرة واهتمام بالغ عند علماء العربية قديما وحديثا، وقد كانت جهودهم منصبة في خدمة النص القرآني، ومعرفة أسراره البيانية والبلاغية.

ولا داعي للتأكيد أن العرب زمن نزول القرآن الكريم قد نشأوا على السليقة، وعلى التذوق الفطري الأصيل، مما ساعدهم على التشبع بروعة كلام الله تعالى، مع قلة الوسائل التي لا تكفي لبلوغ هذا الكلام المعجز.

وبعد ضعف هذه السليقة بسب العديد من العوامل؛ والتي منها اختلاط العرب الفصحاء بغيرهم، ووصول الدعوة إلى أقوام غير عرب، كما أثيرت شكوك ومطاعن في بلاغة القرآن وإعجازه، ممَّا أدى بالباحثين والعلماء إلى البحث عن وسائل تساعدهم على استنباط كنوز القرآن الكريم البلاغية والبيانية

فقد كان القرآن الكريم عاملا رئيسا في البحث في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها وأنواعها ومرتكزاتها، فقد كان باعثا على إثارة همم الباحثين للبحث الجادِّ عن ترتيب أساليب القول والكلام، والتمييز بينها.

ويجمع الباحثون في الدرس اللغوي والأدبي أن القرآن الكريم هو المساهم الأول في نشأة علوم البلاغة التي أمدَّها النص القرآني بجملة من الأساليب البديعة والكلام البليغ.

وكان الهدف من البحث هو استجلاء المكانة الكبيرة للقرآن الكريم في كتب البلاغة القيمة و الآثار التي أوقعها هذا النص الكريم وعلومه المختلفة في نشأة البلاغة العربية وتطورها.

2.مكانة القرآن الكريم بين علوم اللغة العربية

سأقوم بتعريف القرآن الكريم بحديه اللغوي والاصطلاحي ثم أردف ذلك بالحديث عن أهمته في علو مااللغة المختلفة على النحو التالي:

1.2 تعريف القرآن الكريم:

المشهور بين علماء اللغة أن لفظ القرآن في الأصل مصدر مشتق من قرأ، يقال قرأ قراءة وقرآناً (ابن منظور، 1988م، ج:1،ص:128): فهو مصدر مرادف للقراءة ويشير إليه قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (سورة القيامة، الآيتان: 17- 18)

وقيل إنه مشتق من قرأ بمعنى تلا، أو من قرأ بمعنى جمع، ومنه قرى الماء في الحوض إذا جمعه، ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علماً، ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع القرآن الكريم، وعلى كل آية من آياته (عبد الحميد مطلوب، 2004م، ص:7) فقد يطلق لفظ القرآن على جميعه وعى بعضه وقد تسمى الكتب القديمة قرآنا (ابن تيمية،2006، ص:60)

أما من حيث الاصطلاح فقد كان للقرآن الكريم تعريفات كثيرة، وذلك بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن الكريم. إلا أن التعريف الجامع و المانع له يكمن في قولهم:" القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز، المنزل على سيدنا محمد رسول الله ﷺ واسطة جبريل عليه السلام بلسان عربي مبين، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته" (السيوطي، 2005، ج:1،ص: 143. ومحمد علي الصابوني، 1985م، ص:08/07، وابن خلدون، 2004م، ص:419).

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيوداً أخرى مثل: المتحدى بأقصر سورة منه، أو المكتوب بين دفتي المصحف، أو المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس(عبد الحميد مطلوب، 2004م، ص:8/7)

والواقع أن التعريف الذي ذكرناه آنفاً تعريف جامع مانع لا يحتاج إلى زيادة قيد آخر، وكل من زاد عليه قيداً أو قيوداً مما ذكرناه لا يقصد بذلك إلاّ زيادة الإيضاح بذكر بعض خصائص القرآن الكريم التي يتميز بها عما سواه.

2.2 أهمية اللغة العربية وعلومها المختلفة

لقد صار في اعتقاد كل مسلم أن العربية أفضل لغة، لأنها حملت كتاب الله عزّ وجل، كما صارت الرغبة في فهم القرآن دافعا لحفظها، وإتقان علومها.

قال الشاطبي:" وكان المنزل عليه القرآن عربيا أفصح من نطق بالضاد؛ وهو محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ وكان الذين بُعث فيهم عربا أيضا...بل نفى عنه أن يكون فيه شيء أعجمي، فقال تعالى:

﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (سورة النحل، الآية:103)

وقال تعالى في موضع آخر:

﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاء وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ (سورة فصلت، الآية: 44.)

ثم قال:" هذا، وإن كان بعث للناس كافة فإن الله جعل جميع الأمم وعامة الألسنة في هذا الأمر تبعا للسان العرب" (الشاطبي،د.ت، ج:2، ص:294/293)

وقد رغّب في حبها رسولُ الله رسول الله ﷺ وذلك لمكانتها فقال رسول الله ﷺ: «**أحِبُّوا العَرَبَ لِثَلاثٍ لأَنّي عَرَبِيٌّ، والقُرآنُ عَرَبِيٌّ، وكَلامُ أهْلِ الجنَّة عَرَبِيٌّ**» (بيهقي، 1990م، ج:2، ص: 192)

من هذا الحديث الذي يبرز أهمية اللغة العربية في قلوب المسلمين، بل في قلب رسول الله رسول الله ﷺ نجد أنها تجاوزت أهميتها حتى وصلت إلى من نطق بها.

ونجد الثعالبي يعبّر عنها بأبلغ تعبير؛ بقوله:"من أحب الله تعالى، أحب رسوله رسول الله ﷺ محمداً، ومن أحب الرسول رسول الله ﷺ العربي أحب العرب، ومن أحب العرب أحب العربية، ومن أحب العربية عني بها، وثابر عليها وصرف همته إليها" (أبو منصور الثعالبي، ص:18)

ويقول الزبيدي في مقدمة معجمه تاج العروس:" فتدبَّرتُ فُنونَ العِلم التي أَنا كائنٌ بصَدَدِ تكمِيلِها، وقائمٌ بإِزاءِ خِدْمَتِها، وتَحصيلِها، فصادفتُ أَصْلَهَا تاج الأَعظم، الذي هو اللغةُ العربيَّة، خليقة بالمَيْلِ في صَغْو الاعتناءِ بها..." (الزبيدي، ج:1، ص:15/16)

ومعلوم أن رسول الله ﷺ موضع البلاغ من وحيه، اختار له من اللغات أعربها ومن الألسن أفصحها وأبينها، ثم أمده بجوامع الكلم (السيوطي، ص: 171)

وقال أحمد شوقي واصفا فصاحة رسول الله ﷺ (أحمد شوقي، ص:62):

يا أَفصَحَ الناطِقينَ الضادَ قاطِبَةً *** حَديثُكَ الشَهدُ عِندَ الذائِقِ الفَهِمِ

حَلَّيتَ مِــن عَطَلٍ جيدَ البَيانِ بِهِ *** في كُـــــلِّ مُنتَثِرٍ في حُسنِ مُنتَظِمِ

بِـــــكُلِّ قَولٍ كَرِيمٍ أَنتَ قــــائِلُهُ *** تُحيِ القُلـــــوبَ وَتُحيِ مَيِّتَ الهِمَمِ

ولا تزال اللغة العربية حية حتى الآن لسببين؛ هما القرآن الكريم وتأدية الصلاة اليومية. وأدى الاتصال العالمي والتفاعل الحضاري بالآخرين بعدما انتشر الإسلام وتطورت أساليب الاتصال، وتكوين الفرق والطوائف الدينية والمذهبية إلى توليد الكثير من المصطلحات وتغيير معاني كثير من الألفاظ وموت مئات الكلمات ليحل محلها آلاف الكلمات والتعبيرات الأخرى (الرافعي، 2000م، ج:1 ص:75/73. وجرجي زيدان، ج:1 ص: 41.)

وهذا التغير الكمي والكيفي يحدث لهذه اللغة وغيرها من اللغات. بينما يظل القرآن محتفظا بلغته ومفرداته التي لا يمكن فهمها إلّا منه ، ولولاه لاندثرت كما اندثرت لغات قبلها وبعدها؛ كاللغة الآرامية والسريانية واللاتينية وغيرها؛ فبقاء اللغة العربية أساسه حفظ الله تعالى الذي تكفّل سبحانه وتعالى بحفظ كتابه الكريم، فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر، الآية :9)

فحِفْظُ الله للقرآن الكريم أدى إلى حفظ اللغة التي أنزل بها؛ فقد سخر الله تعالى لهذه اللغة من أهل العلم مَنْ تفانوا في حفظها والمحافظة عليها؛ وذلك حفاظا على كتابه الكريم، بل ونظروا إلى علومها على أنها نوع من العبادة، مما ميّز تراثنا الثقافي واللغوي بغزارة التأليف اللغوي المعجمي والبلاغي...

والقرآن هو الذي أخرج فصحاء الأدب العربي وبلغاءه وأصحاب المقامات والرسائل وغيرها؛ أمثال ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب والحريري.

بل إن ابن الأثير يجعل تعلّم القرآن الكريم سبيلا وآلة من آلات علم البيان وعلومه، ونوعا من أنواع صناعة تأليف الكلام، يقول مبرزا بعض أهميته"... منها أنه يضمن كلامه بالآيات في أماكنها اللائقة بها، ومواضعها المناسبة لها، ولا شبهة فيما يصير للكلام بذلك من الفخامة والجزالة والرونق، ومنها أنه إذا عرف مواقع البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة في تأليف القرآن اتخذه بحراً يستخرج منه الدرر والجواهر، ويودعها مطاوي كلامه..." (ابن الأثير الكاتب، ج:1، ص:61/60)

فالقرآن الكريم سبيل قويم لمن أراد اكتساب الكتابة والفصاحة، بل إننا نجد أكثر الناس تعبيرا عن المعاني بأفصح ألفاظ من امتلك نصيبا وافرا من حفظ القرآن، وهذا ما نجده عند الدعاة والخطباء.

3.أثر القرآن الكريم في كتب التراث البلاغي

للقرآن الكريم أثر بالغ في إرساء أصول البلاغة العربية وتطور مباحثها، فقد اهتم العرب به وشغلوا به، وأخذوا يتلونه ويتدارسونه فيما بينهم ويشرحون ما استصعب من معانيه ويدرسون الفاظه وعباراته وتراكيبه وآياته، وقد وقفوا أمامه مبهورين متعجبين، وقد جعلوا البلاغة أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ بعد العلم بالله؛ وبيّنوا أن الإنسان إذا غفل عن علم البلاغة لم يستطع التعرف على إعجازه وما خصه الله به من حسن التأيف، وبراعة التركيب، وجمال الإيجاز...

وكان تأثير القرآن واضحا في اتخاذه مدار الدراسات البلاغية، وكانت آياته وعباراته الأنموذج البلاغي الرائع، في شرح مباحث البلاغة العربية، ومدعاة للتأليف في أصولها وأبوابها، وتعد مسألة الإعجاز القرآني أهم مسألة في تطوير البلاغة.

وكانت بعض الفرق العقدية والفلسفية- على غرار المعتزلة وأهل الكلام- من الأوائل الذين بحثوا في الإعجاز وأبوابه ومقتضياته. واختلفت وجهات النظر في ذلك وتشعبت سبل القول، ولكنهم تلمسوا بلاغة القرآن وبينوا اعجازه فكانت دراساتهم أحسن مصدر للبلاغة وأجل مورد لمن أراد تذوق كتاب الله تعالى وفهم معانيه وبيانه.

ويعد كتاب: "عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم" للمؤلف حسن عبد الفتاح أحمد المنشور في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف من الكتب التي بسطت المسألة في بلاغة القرآن وإعجازه ولعلّ من الكتب التراثية في الجانب البلاغي التي اهتمت بالبلاغة والفصاحة المتعلقة بكتاب الله تعالى:

1.3 كتاب البديع لعبد الله بن المعتز:

هو عَبْدُ اللهِ ابْنُ المُعْتَزِّ بِاللهِ مُحَمَّدِ الهَاشِمِيُّ ابْنِ المُتَوَكِّلِ جَعْفَرِ ابنِ المُعْتَصِمِ مُحَمَّدِ ابنِ الرَّشِيْدِ هارُوْنَ ابنِ المَهْدِيّ، الأَمِيْرُ أَبُو العَبَّاسِ الهَاشِمِيُّ، العَبَّاسِيُّ، البَغْدَادِيُّ، الأَدِيْبُ، صَاحِبُ النَّظْمِ الرَّائِقِ.تَأَدَّبَ بِالمُبَرِّدِ وَثَعْلَبَ ولد فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِيْنَ وَمائَتَيْنِ. (شمس الدين الذهبي (1985م)،ج:14، ص:46-47).

يعدّ كتاب البديع أول كتاب في البديع وصَنْعَة الشعر، فهو على رأس كنب البلاغة، وقد أقر في كتابه أنه جمع فنون البديع ولم يسبقه أحد، وقد ذكر فيه ألوان البديع، وشواهدِها، من كتاب الله، ثم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم في كلام الصحابة وسواهم ثم يليهم كلام الأعراب وبلغاء الكُتاب، ثم يذكر كثيرا مما أُثِرَ من شواهد في الشعر العربي الجاهلي، والإسلامي وشعر المحدثين، وينتهي في الأخير يذكر ما عِيب من شواهد الكلام على هذا اللون المتكلفة و الخارجة عن حدود البلاغة وسحر البيان.

ويذكر محقق الكتاب أن ابن المعتز:" عدَّد فيه شتى أساليب ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره. وهذا الكتاب ليس قاصرًا على البديع بالمعنى الضيق المحدود؛ لأن ابن المعتز يذكر فيه التشبيه والاستعارة وهما من صميم البيان العربي، ويذكر فيه الكناية؛ ولكنه يريد بها معناها اللغوي، وهو أهم من المعنى الاصطلاحي المعروف .فإذا قلنا :إن ابن المعتز ألَّف في البيان، فقد سرنا في الحق والتفكير السليم، وإذا قلنا :إنه ألف في البديع، فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرِّر، وإن كان البديع في الاصطلاح المتأخر جزءًا من البيان، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعروف عن بعض علماء البلاغة يرادف كلمة البيان أو البلاغة. (عبد الله بن المعتز(1990م)، ص: 7)

وقد قدم هذا الكتاب للدرس البلاغي فائدتين هامتين :وهما:

أولهما: تقديم هذا المنهج النقدي الماثل في الموازنة بين الأمثلة الجيدة والغير جيدة، وهو المنهج الذي سار عليه البلاغيين بعده.

ثانيهما: الدلالة على أن البديع فن عربي خالص أصيل له جذوره الموروثة في التراث العربي القديم من القرآن والحديث، أشعار القدماء .

ويرجع سبب تأليف ابن المعتز لهذا الكتاب ليردّ به على الحركة الشعوبية القائمة على الدولة الفارسية والأصول الفارسية، والتي سعت على احتقار العرب وما لهم من امتيازات وصفات تمجيد كل ما يتعلق بالفرس من تراث وحضارة، كما ادعت أن سبب الإرث العربي في الشعر والنثر إنما هو من الفرس، وأن البلاغة العربية ما هي إلا امتداد لتراثهم.

2.3 كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري:

هو الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعد، أبو هلال، العسكري. اللغوي، والأديب، والشاعر، والمفسر. نسبته إلى " **عسكر** مكرم " من الأهواز. من كتبه: التلخيص، والمحاسن في تفسير القرآن، وجمهرة الأمثال،والحث على طلب العلم...

وكتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، والصناعة هي الحرفة التي يجيدها الإنسان، وقال العرب رجل صناع أي حاذق، وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله:"خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته، يستميل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم" .

وكتاب الصناعتين في مقدمة الكتب التي ذاع ذكرها، وعم الانتفاع بها في نقد المنظوم والمنثور، و لقد أكد في بداية كتابه عن السبب الذي دفعه لوضعه والمتمثل في كونه يقصد مقاصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب بعيدا عن سبيل المتكلمين. وقد بسط فيه موضوعات البلاغة وطرق الإبانة، وتمييز الكلام جيده من رديئه وصفة الكلام وخطأ المعنى وفساده، وأسهب في المحسنات البديعية، وبين الوجوه المختلفة وفنونها المتعددة، وشرح فنون البديع ومقاطع الكلام، وغير ذلك من فنون صناعة الشعر والنثر، وجمع له الشواهد من آي الذكر الحكيم وكلام الشعراء والكتاب.

وقد سلك فيه مسلك أهل الأدب في دراسة فنون البلاغة وإيراد الشواهد الأدبية من شعر ونثر وتعزيزهما بالأمثلة من القرآن والحديث. ويقول عن منهجه:" لما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام للكلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل، ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة" (أبو هلال العسكري، ص: 25)

ثم بين أن "أكبرها وأشهرها كتاب " البيان والتبيين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،، وهو لعمري كثير الفوائد، جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة المنافع ،وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه إليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير، رأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه." (أبو هلال العسكري، ص: 25)

3.3 كتاب "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" لمحمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ/918م)

محمد بن يزيد الواسطي (ت306هـ/918م) هو الإمامُ الزاهِدُ الحافِظُ المُجَوِّدُ أبي سَعِيْدٍ الوَاسِطِيُّ، الخَوْلاَنِيُّ مولاهم. كان كَانَ ثَبْتاً فِي الحَدِيْثِ.وثِقَةٌ. وقد اخْتَلَفُوا فِي تَارِيْخِ مَوْتِهِ: فقيل أنه تُوُفِّيَ سَنَةَ تِسْعِيْنَ وَمائَةٍ. وقيل: مَاتَ سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِيْنَ، وَقِيْلَ مَاتَ في سنة ثمان وثمانين ومائة (شمس الدين الذهبي،1985م،ج:9، ص:303).

ولعل محمد صادق الرافعي كان مصيبا عندما قال عن الكتاب :" بيد أن أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه على طريقتهم في التأليف، إنما هو فيما نعلم كتاب" إعجاز القرآن " لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي، وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحًا كبيرًا سماه" المعتضد"، وشرحًا آخر أصغر منه. (الرافعي، 2000م، ج:2 ص:111).

ثم يؤكد الرافعي:"ولا نظن الواسطي بنى إلا على ما ابتدأه الجاحظ، كما بنى عبد القاهر في" دلائل الإعجاز "على الواسطي". (الرافعي، 2000م، ج:2 ص:111).

يعد كتاب "إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه" أول كتاب يحمل لفظة (إعجاز) وهذا الكتاب مفقود، ولم يمكن العثور عليه، ولا على شروحه.

4.3. رسالة "النكت في إعجاز القرآن " لأبي الحسن علي بن عيسى الرُّمّاني(ت386هـ/996م):

صاحب الكتاب أو الرسالة هو " العَلاَّمَةُ، أَبُو الحَسَنِ عَلِيُّ بنُ عِيْسَى الرُّمَّانِيُّ النَّحْوِيُّ المُعْتَزِلِيُّ ، أَصلُهُ مِنْ سُرَّ مَنْ رَأَى. أَخذَ العلم عَنِ :الزَّجَّاجِ، وَابنِ دُرَيْدٍ، وَطَائِفَةٍ. وَعَنْهُ :أَبُو القَاسِمِ التَّنُوْخِيُّ، وَالجَوْهَرِيُّ، وَهلاَلُ بنُ المحسّنِ. وَصَنَّفَ فِي

التَّفْسِيْرِ، وَاللُّغَةِ، وَالنَّحْوِ، وَالكَلاَمِ، وَشَرَحَ (سِيْبَوَيْه)ن وَكِتَابَ (الجمل) ، وَلَهُ فِي الاشتقَاقِ، وَفِي التَّصْرِيْفِ، وَأَشيَاء، وَأَلَّفَ فِي الاعتزَالِ) صنعَة الاسْتدلاَلِ (سبعَ مُجَلَّدَاتٍ، وَكِتَاب) الأَسمَاءِ وَالصِّفَاتِ (، وَكِتَاب) الأَكوَانِ (، وَكِتَاب) المَعْلُوْمِ وَالمجهولِ (، لَهُ نَحْو مِن مائَةِ مُصَنَّفٍ...وَكَانَ أَبُو حَيَّانَ التَّوْحِيْدِيُّ يبالِغُ فِي تعظيمِ الرُّمَّانِيِّ إِلَى الغَايَةِ، وَيصفُهُ بِالتَّأَلُّهِ، وَالتَّنَزُّهِ، وَالفصَاحَةِ، وَالتَّقْوَى. مَاتَ فِي جُمَادَى الأُوْلَى سَنَةَ أَرْبَعٍ وَثَمَانِيْنَ وَثَلاَثِ مائَةٍ، عَنْ ثَمَانٍ وَثَمَانِيْنَ سَنَةً. وَمَاتَ بِبَغْدَادَ، وَكَانَ مِنْ أَوْعِيةِ العِلْمِ عَلَى بِدْعَتِهِ".(شمس الدين الذهبي (1985م)،ج:16، ص:533-534).

ورسالة "النكت في إعجاز القرآن" لأبي الحسن الرُمّاني نشرت ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، وهي: للخطابي والرماني ، وعبد القاهر الجرجاني . وقد بين فيها أن "وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات :ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة , والتحدي للكافة , والصرفة , والبلاغة :والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة , ونقض العادة , وقياسه بكل معجزة" (الرماني،أبو الحسن (1985م)،ص:1).

وأما البلاغة فهي عنده:" على ثلاث طبقات :منها ما هو في أعلى طبقة , ومنها ما هو في أدنى طبقة , ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة. فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز , وهو بلاغة القرآن. وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس. وليست البلاغة إفهام المعنى , لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي؛ ولا البلاغة أيضاً بتحقيق اللفظ على المعنى , لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره ونافر متكلف , وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ. فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن , وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة , وأعلى طبقات البلاغة معجز للعرب والعجم كإعجاز الشعر المغحم , فهذا معجز للمفحم خاصة كما أن ذلك معجز للكافة. (الرماني،أبو الحسن (1985م)،ص:1-2).

وقد قسّم الكتاب على حسب أقسم البلاغة عنده: وهي:

- باب الإيجاز
- باب التشبيه
- باب الاستعارة
- باب التلاؤم
- باب الفواصل
- باب التجانس
- باب التصريف
- باب التضمين
- باب المبالغة
- باب البيان

5.3 كتاب "بيان إعجاز القرآن "لأبي سليمان الخطابي(310: 388هـ)

هو أَبُو سُلَيْمَانَ حَمْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ الخطابي الإِمَامُ، والعَلاَّمَةُ، والحَافِظُ، واللُّغَوِيُّ، أَبُو سُلَيْمَانَ حَمْدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ خَطَّابٍ البُسْتِيُّ، الخَطَّابِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ.وُلِدَ :سَنَةَ بِضْعَ عَشْرَةَ وَثَلاَثِ مائَةٍ.وَسَمِعَ مِنْ :أَبِي سَعِيْدٍ بنِ الأَعْرَابِيّ بِمَكَّةَ، وَمن إِسْمَاعِيْلَ بنِ مُحَمَّدٍ الصَّفَّار وَطبقتِه بِبَغْدَادَ، وَمن أَبِي بَكْرٍ بنِ دَاسَة، وَغَيْرِهِ بِالبَصْرَةِ، وَمن أَبِي العَبَّاس الأَصَمّ، وَرَوَى أَيْضاً عَنْ :أَبِي عَمْرٍو بنِ السَّمَّاكِ، وَمُكْرَمٍ القَاضِي، وَأَبِي عُمَرَ غُلاَم ثَعْلَب) ١ (، وَحَمْزَة بن مُحَمَّدٍ

العَقَبِي ، وَأَبِي بَكْرٍ النَّجَّاد، وَجَعْفَر بن مُحَمَّدٍ الخُلْدِيّ. وَأَخَذَ الفِقْهَ عَلَى مَذْهَب الشَّافِعِيّ عَنْ :أَبِي بَكْرٍ القَفَّالِ الشَّاشِي، وَأَبِي عَلِيٍّ بنِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَنُظَرَائِهِمَا ".(شمس الدين الذهبي (1985م)، ج:17، ص:23-24).

وقد ألف كتاب "بيان إعجاز القرآن" لأبي سليمان الخطاب ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز السالفة الذكر.

وقد بين الخطابي أهمية كتابه في المقدمة بقوله:" قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن ري، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته. فأما أن يكون قد يقبت في النفوس نقبة بكونه معجزًا للخلق ممتنعًا عليهم الإتيانُ بمثله على حال فلا موضع لها، والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمان الراهن الذي نحن فيه. وذلك أن النبي ﷺ قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه. وقد بقى ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرًا لهم النكير , زاريًا على أديانهم، مسفهًا آراءهم وأحلامهم، حتى نبذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس , وأُريقت المهج, وقُطعت الأَرحام , وذهبت الأموال..." .(الخطابي، أبو سليمان (1996م)، ص:21).

ومن الذين ساهموا في تطوير البلاغة وإرساء قواعدها وأصولها المفسرون، والعاملون على شرح اللفظة القرآنية، وهم الذين ينظرون في كتاب الله ويفسرون ألفاظه ويوضحون معانيه ويشرحون ما فيه من قيم رفيعة ونظرات عميقة، ولكي يستطيع المفسر أن يقوم بهذا كله لابد أن يطلع على علوم اللغة لينفذ إلى أسرار القول ويغوص على معانيه.

والبلاغة إحدى الوسائل المهمة التي تكشف أسرار الإعجاز وتوجه الآيات التي لا يمكن حملها على الظاهر، وقد نعى السكاكي على المفسر الذي لا يعرف من البلاغة شيئاً، وأصبحت كتب البلاغة سبيلا تفضي إلى رحاب القرآن ومعالم يهتدي بها الدارسون، ومن هنا كانت البلاغة مقدمة لدراسة كتاب الله وتفسيره وإدراك فصاحته وبلاغته.

ومن أهم الكتب التي عنيت بهذا الجانب تفسير الكشاف لجار الله الزمخشري(ت528ه) الذي جمع فيه كثيرا من فنون البلاغة واستعان بها في فهم كلام الله وإظهار ما فيه من روعة وجمال.

وقد سمع العرب آيات الكتاب المبين، فدهشوا بما عرفوا فيها من أساليب البلاغة، وحاروا في تعليل دهشتهم وإعجابهم وهم أهل اللغة وأرباب البلاغة، لقد سمعوا لغة من لغتهم وجملا من حروفهم، ولكنهم لم يسمعوا قبلها مثيلا؛ لا في نثر ناثر؛ ولا في شعر شاعر، ولا في سجع كاهن.

ولذلك لما رشحوا كبيرهم للحكم على القرآن أدرك بلاغة القرآن وخضع وأذعن في أول الأمر، وقاموا يستفزونه بحمية الجاهلية، حتى قال لهم دعوني أفكر، فلما فكر وقدر قال:

﴿ قَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾(المدثر، الآية 24.)

ولذلك وصفه القرآن بقوله ﴿ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ (المدثر، الآية:16)

وعمر بن الخطاب أسلم بسماعه آيات من مطلع سورة طه وشكل سماع القرآن خطرا على مصالح المشركين لأنه بمجرد سماعه ترق له النفوس وتطمئن وتوقن بأنه من عند الله ولذلك:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت، الآية:25)

وإذا كان في استطاعتهم أن يتواصوا بالبعد عنه، فإن في ذلك إقرارا منهم بسلطانه وروعة بيانه، ولكن كيف يظلون بعيدين عنه وعن الاستماع إليه وهو يناديهم متحديا أن يأتوا بمثله"

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ (الطور، الآية:33)

وإن عجزوا، وهم الفصحاء البلغاء، فلياتوا بعشر سور مثله:

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود، الآية:13)

ثم يعجزون، ويلاحقهم صارخا في وجوههم متحديا :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس،الآية:38)

وقد بعث الله محمدا، ﷺ، أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا له...

فكلما ازداد تحديا لهم به وتقريعا لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستورا، وظهر منه ما كان خفيا، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا، قال: فهاتها مفتريات، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر

وهكذا اتضح للناس كافة أن القرآن معجز ولم يجادل في ذلك أحد، ولم يكابر فيه مكابر، ولكن الاختلاف الذي بسببه تعددت المذاهب والآراء هو وجه الإعجاز وسره، لا الإعجاز في حد ذاته.

ومن أجل ذلك ظهرت كتب كثيرة، ومؤلفات جليلة تتناول موضوع الإعجاز، إلى جانب مؤلفات أخرى تتناول جوانب القرآن الأخرى بالبحث والدراسة، وساهم القرآن الكريم مساهمة فعالة في ازدهار اللغة العربية وقت نزوله، وحفاظا على بقائها وخلودها بعد ذلك عبر العصور والقرون، وسيظل الشأن على ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

4. خاتمة:

يمكن أن نستخلص في خاتمة هذا البحث إن عملية رصد تأثير القرآن الكريم في الدراسات البلاغية عملية صعبة وشاقة، لا يمكن الإيفاء بها في مقال متواضع مثل هذا، لأن ذاك مجال فسيح لأبحاث أكاديمية ضافية وواسعة، وحسبي أنني ذكرت بعض الخطوط العريضة للقضية التي اخترتها في هذا البحث، ومن شأن ذلك أن يعطي تصورا تقريبيا لذلك التفاعل الهام الذي حصل بين المسلمين وكتاب الله تعالى الخالد.

وبعد الانتهاء من مجريات هذا البحث نصل إلى بعض النتائج، ومنها:

1) القرآن الكريم بكل ما حوى من بلاغة وفصاحة وبيان هو السبب الرئيس في نشوء معظم أبواب البلاغة العربية.

2) إذا أردنا للبلاغة تضورا وسموا لابد لنا من فهم القديم واستعابه لكشف البلاغة في ثوبها القديم الذي لم يعد يعجب الكثير منا ولا يرضي أذواقهم، لأن التجديد نفسه ليدعو إلى معرفة القديم ليكون تجديدا صادقا أصيلا .

3) إن استثمار علوم البلاغة وتطوير الدرس البلاغي وجعله يستجيب لطموحات الباحثين في الدراسات النصية العربية، عهو السبي القويم للمحافظة على اللغة العربية. لأن هذا الدرس يرشد المتكلم والمنشئ إلى التأليف وفق الاستعمال العربي الرصين،

وإذا رمنا بعثا وإحياء للدرس البلاغي فلا مناص من وضع القرآن الكريم في مقدمة الأولويات، فمنه خرجت علوم البلاغة وإليه تعود. بل ما كان لعلوم اللغة كلها هذا الظهور وهذا الاهتمام لولا القرآن الكريم.

5. قائمة المصادروالمراجع:

***- القرآن الكريم**

1) ابن الأثير ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،ط:1،دار نهضة مصر للطباعة، مصر.

2) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (2006م). الإيمان الأوسط (شرح حديث جبريل عليه السلام في الإسلام والإيمان والإحسان)ط:1، الشركة الجزائرية اللبنانية، الجزائر.

3) ابن خلدون، عبد الرحمن، (2004م). المقدمة،ط:1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

4) ابن المعتز، عبد الله (1990م)، كتاب البديع، دار الجيل، بيروت، لبنان.

5) ابن منظور، محمد، (1988م). لسان العرب، ط:1، إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

6) البيهقي، أحمد بن الحسين، (1990م). شعب الإيمان،ط:1، دار الكتب العلمية، لبنان.

7) الرماني،أبو الحسن (1985م)،مكتبة الجامعة الملية الإسلامية، دهلي.

8) جرجي، زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ط:1، مؤسسة دار الهلال، .

9) الرازي، محمد، (1985م). مختار الصحاح، ط:1، دائرة المعارف في مكتبة لبنان، لبنان.

10) الرافعي، مصطفى صادق، (2000م) تاريخ آداب العرب، ط:1، دار الكتب العلمية، لبنان.

11) شمس الدين الذهبي، (1985م) سير أعلام النبلاء، ط:3، مؤسسة الرسالة، سوريا.

12) السيوطي، عبد الرحمن (2005م). شرح الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع، ط:1، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر.

13) الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم، الموافقات. دار ابن عفان القاهرة، مصر.

14) شوقي، أحمد، الديوان، دار صادر ، لبنان.

15) الصابوني، محمد علي، (1985م). التبيان في علوم القرآن، ط:1، بيروت، لبنان.

16) مطلوب، عبد المحمود، (2004). مباحث في علوم القرآن والحديث،، ط:1، القاهرة، مصر